

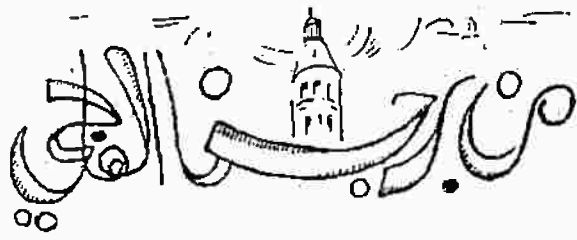
من الأعراس الإسلامية الشهيرة
 زواج قطر الندى الطولونية
 بالخليفة المعتمد بالله
 لأستاذ محج عبد الله عثمان

الولاية والخلق التقليدية ، وانتظمت العلاقات الودية بين الخلافة والدولة المصرية ، بشروط وعهود معينة . ورأى خمارويه من جهة أخرى أن يوثق هذه العلاقات بمشروع معاهدة اقترحه على الخليفة ، وهو أن تزوج ابنته أسماء الملقبة بقطر الندى لولده وولي عهده المكتفى بالله ؛ فوافق المعتمد على هذا المشروع على أن يتزوج هو قطر الندى . واعتبط خمارويه بعقد هذه الصلة الوثيقة بينه وبين الخلافة ، وبمث الخليفة مندوبه وصديقه الحسن بن عبد الله الجوهري المعروف بابن الخصاص إلى مصر ليتولى إحضار المروس إلى بغداد ، وليشرف من قبله على أهبات القران الخلاق .

وكانت زواج المعتمد بقطر الندى من أعظم الحوادث الاجتماعية في التاريخ الإسلامي ، وكانت هذه الأميرة المصرية النابغة من أجل نساء عصرها وأكلمهن في العقل والخلال ؛ وكانت وقت خطبتها صبية في نحو الخامسة عشرة ؛ وكان أبوها خمارويه يبعدها حباً ؛ فلما وقع الاتفاق على زواجها من المعتمد أحيط عقدها وزفافها بأروع ما يتصور الإنسان من مظاهر الفخامة والبهاء . وكان صداقها ألف ألف درهم ، ولكن خمارويه أنفق في تجهيزها أضعاف أضعاف هذا القدر . وكان جهازها مضرب الأمثال في البذخ الطائل الذي تكاد تحسبه من مناظر ألف ليلة وليلة . وقد نقلت إلينا الرواية بعض تفاصيل مدهشة عن جهاز قطر الندى وزفافها ؛ فذكرت لنا أن خمارويه قدم لابنته فيما قدم دكة أربع قطع من ذهب وعليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه جبة جواهر لا تقدر ، ومائة هون من ذهب ؛ ومن الحلي والثياب روائع يعجز عنها الوصف ، حتى قيل إن من بينها ألف تكة من الحرير قيمة الواحدة منها عشرة دنانير ؛ وهي واقعة ينوه بها القريري ويتخذها دليلاً على باخ هذا العصر الطائل ، ويقول لنا إن أسواق القاهرة في عصره أعنى في أوائل القرن التاسع كانت تعجز عن أن تقدم تكة واحدة بهذه القيمة ؛ ويقول لنا القاضي إن ابن الخصاص ، وقد تولى

كانت الدولة الطولونية أولى الدول الإسلامية المستقلة بمصر ، وكانت أقصرها حياة ، ولكنهم لم تكن أقلها قوة وبهاء ، فهي لم تعمر سوى سبعة وثلاثين عاماً (٢٥٤ - ٢٩٢) ، ولكنها سطعت خلال حياتها القصيرة كما تسطع الدول العظيمة . ثم انهارت فجأة كأنها صرخ أسس على الرمال ، ذلك لأنها كانت تدين بوجودها وقوتها لمؤسسها العظيم أحمد بن طولون ؛ فلما توفي أحمد في سنة ٢٧٠ هـ ، وخلفه ولده خمارويه ، لبثت الدولة مدى حين تحتفظ بلونها الزاهر ؛ ولكن عوامل الانحلال السريع كانت تعمل لتقويض دعائمها التي لم تكن قد رسخت بعد . وكان خمارويه أميراً مترفاً ينثر حوله ما استطاع من ألوان الفخامة والبهاء ، فمضى بتوسيع القطائع^(١) وتجميلها عناية فائقة ، وزاد في قصر أبيه زيادات كبيرة ، وأنشأ له قصراً خاصاً بذل فيه من صنوف البهاء والبذخ آيات عجيبة ، وجعل فيه بركة من الزئبق الخالص ، وديواناً مملوكياً فخماً عليه قبة عظيمة ، وداراً للسباع ، ومسارح للطيور وغيرها . وكانت هذه الألوان الزاهية تسبغ على الدولة الطولونية مظهراً بارزاً من القوة والعظمة ، ولكن النضال المستمر الذي اضطرت إلى خوضه كان يستغرق قواها ومواردها ، ويمرضها لتلك الرغازع والمفاجآت التي تنذر الدول الناشئة بالفناء الكامل وكانت الدولة الطولونية تستظل منذ قيامها بلواء الخلافة الإسمي ؛ ولم يشأ مؤسسها النابغ أن يخرج على هذه السلطة الروحية التي يستمد منها شرعية حكمه واستقلاله . وحذا ولده خمارويه حذوه ، فدعا للمعتمد العباسي ، ثم دعا من بعده للمعتمد . على أن هذا الاستقلال الإسمي بلواء الخلافة لم يحل دون تعرض الدولة الطولونية لهجمات عمال الخلافة وأوليائها الآخرين . واضطر خمارويه ، كما اضطّر أبوه من قبل أن يخوض غمار معارك دفاعية متصلة ؛ ولما ولي المعتمد الخلافة في أواخر سنة ٢٧٩ هـ ، بعث إليه خمارويه بالهدايا الملوكية المتأداة ، فبعث إليه المعتمد بكتاب

(١) القطائع عاصمة الدولة الطولونية ، وكانت تقع في شمال شرق القسطنطينية بين جامع ابن طولون وجبل القطم



« كل شيء يزدهر في مملكة تخرج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها « لا برويير » في كتابه « الأخلاق » تقابلها كلمة أخرى في كتاب للهند عن رجل دخل على ملكه فقال له : « أيها الملك إن بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفسنا متعلقة بنفسك .. »

وضعتني هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت في نفسي إن هذه النظرة إلى « الملك » لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادئ السياسية أو العقائد الدينية . فالشرق والغرب لا يتفان هكذا إلا على شيء يخرج من نبع طبيعتنا الإنسانية . إن الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائماً ترى الأمة هي الجسم والملك هو « الرأس » بمنعها الطبيعي « الفسيولوجي » . هذا صحيح لأربق فيه ، والملك هو الحاكم المطلق في نظام الملكية المطلقة . أما والأمة في النظم الديمقراطية هي التي تتولى الحكم فن الحق أن نتساءل عن صحة تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهدينا إلى هذه النتيجة : إن الأمم في شبابها كالفتى ، تسهوى عقله كل مظاهر القوة ، وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ؛ فهي تجمع كل السلطة لتمطيها ذلك الحاكم المطلق الذي يدير كيانه ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، إلى أن تمضي أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة في طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها السادية بنفسها ، وترك ملكها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيقي من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا نرى الملك في الشعوب الديمقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادي إلى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس في جسم الإنسان المفكر ، فينقطع هو إلى التوجيه الفكري لأمنه وتشجيع العلوم والآداب والفنون ، وختم كل مظاهر النشاط الأدبي والمادي في الدولة بطابع الحضارة . فالملك في كل زمان ومكان هو الرأس دائماً ؛ على أنه في الأمة الفتية رأس فتى ، وفي الأمة المريقة رأس رجل .

توضيح المحرر

إعداد الجهاز والاشراف على النفقة تحقيقاً لرغبة خوارويه ، حينما قدم إليه ثبت النفقة ذكر له أنه لم يبق منها للتسوية سوى « كسر » قدره أربعائة ألف دينار ، وإذن فما بالك بالنفقة كلها إذا كان هذا كسر منها فقط !^(١)

وفي أواخر سنة ٢٨١ هـ ، تم تجهيز قطر الندى ، واتخذت الأهبة لارسالها إلى الخليفة . وهنا أيضاً يجب أن نرجع الدمن إلى قصص ألف ليلة وليلة ، لكي نتصور ما أحيط به رحلتها من مصر إلى بغداد من مظاهر النماء والفخامة والترف . فقد شاء خوارويه أن يجعل لابنته من تلك الرحلة الشاقة رهة بديعة ، فأمر أن يقام على طول الطريق من مصر إلى الشام ثم إلى بغداد في نهاية كل مرحلة منزل ومير تنزل فيه قطر الندى وحاشيتها ، وتتمتع فيه بجميع وسائل الراحة . وأنفقت في هذه الرحلة مبالغ طائلة ؛ وخرجت قطر الندى من القطائع في ركب ملكي عظيم بشرف عليه ابن الخصاص متدوب الخليفة وجماعة من الأعيان ، ومعها عمها شيان بن أحمد بن طولون ؛ وصحبها عمها البلسة إلى آخر حدود مصر من جهة الشام ؛ « وكانوا يسرون بها سير الطفل في المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصرأ قد فرش ، فيه جميع ما يحتاج إليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل ما يصلح لئلا في حال الإقامة ، فكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصرأ ينقل من مجلس إلى مجلس »^(٢)

ووصل ركب قطر الندى إلى بغداد في فاتحة المحرم سنة ٢٨٢ هـ فأُنزلت في دار صاعد . وكان المتعبد غائباً بالموصل ، فلما علم بمقدمها عاد إلى بغداد ، وزفت إليه في الخامس من شهر ربيع الأول في حفلات عظيمة باذخة أسبغت على بغداد مدى أيام حللا ساطعة من البهاء والبهجة . وسحرت قطر الندى الخليفة بجواهرها وخلالها البارعة ، وتفوقت في حظوتها لديه على سائر حظاياها . ومما يروى أن المتعبد خلا بها ذات يوم في مجلس أنيس ، فلما ثقل رأسه من الشراب وضع رأسه على حجرها ، فلما استغرق في النوم ، وضعت رأسه على وسادة وغادرت المجلس ؛ فلما استيقظ ولم يجدها استشاط غضباً وناداها وعنفها على تصرفها ، فأجابته : « يا أمير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمت به علي ، ولكن فيا أدبي به أبي أن قال : لا تنائي مع الجلوس ، ولا تجلسي مع النيام »^(٣)

محمد عبد الله عنانه

(١) الفرير في المخطوط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١١٢

(٢) الفرير في المخطوط ج ٢ ص ١١٣ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٨